أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك . لذلك أحس في الليل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك . على أني أبتك نصيحة لا أسألك عليها أجراً : إذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمائة دولار » ... بذلك وبأمثاله اتخذ أيب الأمين سبيله إلى قلوب الناس ، فما منهم إلا مكبره ومحبه . وكان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم ، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً ؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام ! وهو لا يسألهم أجرا على ذلك ، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم ...

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجتهم ؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هربدن ، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه ! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه : « هذا نصفك » ؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة ، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الإخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبعج وينتفخ ، ويرونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة . كان لا يعنى في شيء يظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر ... وكان في عمله كما كان في منزله ، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيتها ؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات .. ولله ما كان أعظم تلك البساطة منه في كل شيء ! وهل ثمت بين التكلف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق ؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته ...

(يتبع) الخفيف

منار الرشد

كتاب جديد يبحث في المذهب الروحاني

وبه تنظر الروح وترى الله

يباع في مكتبة الحلبي والمكتبة التجارية بالقاهرة

وثمنه ١٥ قرشاً

حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

تتمة ما نشر في العدد ٢٤٥

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لمصر ليونان لروما ، فيقول في فلاسفة الإغريق :

فذاك أريسطو وذا إقليدس ذو منطق هذا وذا مهندس
وهو ذا سقراط ذاك الأنفس من كان للآداب دوماً يغرس

ثم يكون من سوء حظ ديوجنيس أن يجيء في الشطرة الخامسة ، فتسلبه القافية الرائية مصباحه ، ولا يبقى له من فلسفته الكابتة إلا أن يكون :

وذا ديوجنيس ذو التعرّي !

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير ، فهو يأمرنا :

أن نمرج نحو مكان الصور حتى نرى أجمل صنع البشر

حيث عينه الفتانة لا تخفي عليها خافية :

فهاك كل بطل مبارز يلوح في أعضائه البوارز
وكل خود ذات طرف غامز وأجفن عن الهوى رواميز
وطلعة تخسف وجه البدر

لاشك أنك تعبت من التجوال — أو من الشعر ! — والخواجا فرنسيس يشعر بذلك تواً ، فهو يلاحقك بشعره الفلسفي إذ يقول :

تبا لنفس حظها يصرعها وكل مايلزها (كذا!) يلذعها
آفتها تضجر يتبعها فأينما سارت أتى يصفعها
وربما يلحقها للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خمسائية المعلم فرنسيس ، وقد تكفي الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة «اللوكسمبور» إلى متحف « كلسوني » ومن دار البلدية إلى « بولفار ميخائيل إلى لقا يبوعه الجميل » . ولا ينسى أن يعرج بك على حديقة النبات ومتحف التاريخ الطبيعي حيث يدور بك شعراً في أقسامه من الجيولوجيا ، إلى المعادن ، إلى النبات ، إلى الحيوان . ثم هو

يأخذ بيدك إلى متحف « الفنون والصناعات » ، وينتهى بك إلى باريس فى الليل حيث يرى « الكل يمشون بها أزواجاً — ويدخلون فى الصفا أفواجاً »

والآن وقد اجتزنا محنة شعر الخواجا فرنسيس ، يمكننا أن نتمتع دون وجل ببقية نثره . فنعود إليه فى أول وصوله إلى باريس عند «انفلاق الصباح» تلك المدينة ذات الشوارع « رحبة العرض ، مستقيمة الطول ، حسنة التمهيد والتخطيط ... جامعة لكل شروط النظافة والاتقان . فلا يقوم هنالك للجيف الطاعونية انبعاث ، ولا للأقذار (كذا) الوبائية حشر » — لاشك أن صورة عمران العثمانيين لسوريا ماثلة لعين الحلبيّ المسكين وهو يكتب هذه الفقرة !

ودخل رحالتنا إلى مسارح باريس التمثيلية منها والغنائية ، فوجد الفرنسيين فيها « جامعين إلى دست واحد ما تفرقت قطعه فى رقاع السنين . وهكذا يحلون هذه الاستحضارات (ليفكرنّ صاحبنا بالمندل) والاستظهارات بقلايد الآداب ، وفصاحة اللغة ويرخمونها بآلات الطرب وحسن الصوت ، بحيث أن المشاهد لا يعود يدرى بأى حاسة يستقبل وقوع الطرب (بحاسة الشم غالباً !) أبعينه أم بأذنه . فيرحل حاملا فى دماغه نهاراً من الأدوار الأدبية ، وفى أعينه انبهاراً من الأضواء الطبيعية ، وفى قلبه أنهاراً من ينابيع الطرب والحبور »

ولا شك أن ضوضاء باريس فى سنة ١٨٦٧ كانت شديدة على آذان هذا الحلبيّ — ليت شعرى ماذا يقول لو عاد إلى باريس سنة ١٩٣٨ ! — « حينما تكون الأعين راتمة فى تلك الآفاق الزاهرة ، تكون الآذان عرضة لانتظام تموجات الضوضاء الباريسية ، واصطدام تلك الرجات التى تبتلع لمعات الرعود ، وتهتضم طلقات الصواعق . فهناك ألوف المركبات مندفعة على الدوام اندفاع الأمواج إزاء مهب العواصف ، وألوف صنوف العربات منسحبة وراء خيولها الجامحة (تصور ألوف الخيول الجامحة وسط المدينة العامرة !) انسحاب السحاب بأزمة الرياح »

وعن العمل والعمال والنشاط البادى فى كل مظاهر الحياة : « وهناك لا يفتر صياح ربوات أعمال الأيدى مطلوقاً من أفواه الآلات والأجهزة ، ولا تكف ألوف المعامل البخارية صافرة بأبواقها النارية لتدعو فرسان العقول — لاحظ اللغة التصويرية ! — إلى مواصلة النزال فى حومة الابداع والاختراع ، تسديداً لواجبات القرائح ، وتشييداً لنظام الجماعة . وهناك الجميع يجرون إلى الأمام ، الجميع يحركون ، الجميع يتسارعون ، الجميع يشتغلون ، الجميع متعاضدون سوية ، منضمون إلى قوة واحدة ، للركض إلى اقتحام كل المصاعب ، والوصول إلى قمة الكمال والجمال ... فكم سرور واندهاش للأعين إذاً ، عند ما ترى هذه الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقصعة واحدة ، بدون نزاع فى جزئياتها ، ولا انقسام فى كلياتها ، سابحة فى بحور الأمن والسلام ، بدون خوف من وائب أجنبى أو حسود غادر » ونسى الخواجا فرنسيس سياسياً فى برلين اسمه بسمارك يتربص بفرنسا ؛ ويرسل « أولان » پروسيا يقتحمون باريس بعد أربع سنوات من كلامه عن « الوائب الأجنبى ، والحسود الغادر » ، ويعقدون تاج الأمبراطورية الألمانية على رأس غليوم الأول فى قصر فرساى . لذا واصل رحالتنا كلامه عن « عدم خوف الأمة الفرنساوية من وحش مفترس ، أو جبار مختلس — بالذات ! — رافلة بأذيال الحرية الكاملة » — فى عهد الأمبراطور نابليون الثالث تلك الحرية الكاملة !

أما عن أنوار باريس — ويقيناً إن باريس كانت جديرة باسم « مدينة النور » حتى فى ذلك الوقت — فالخواجا يحدثنا عن « الأنوار الغازية المندفعة من أفواه ربوات أنابيبها تحت أشكال ألسن نارية تدعو باردى الروح إلى الدخول فى كرة التمدن المتوقدة بلهيب الحكمة والآداب »

ورحالتنا الحلبى مدرك تمام الادراك أن « كل هذا الجمال العجيب والكمال الغريب الذى رقت إليه هذه المدينة المعظمة » إنما هو نتيجة ارتقاء « العقل عندهم فى طريق التقدم والنجاح ، ولم يصعد العقل إلى القمة العالية إلا بدرج المدارس التى لا يفتر تشييدها ، ولا يكف نظامها . فيوجد عندهم لكل قسم من العلوم مدرسة تحيط به وتجمع شمله جمعاً لا يقبل التفريق »

ثم هم « أقاموا فى كل جانب من المدينة مكتبة عظيمة ، معدة لقبول الجمهور مطلقاً . فيدخلون الناس إليها أفواجاً ، ويقرأون ما يريدون ، وينسخون ما يشتهون بكل راحة وهدوء بال ...

ولما كان يوجد جانب كبير من العلوم يستلزم كونه عملياً وعيانياً بعد كونه نظرياً ، فقد شادوا لذلك محلات مخصوصة يسمونها بالموزيوم ، وأشحنوها من كل المواد الضرورية لدراسة موضوعها» وقد وجـدها الخواجا فرنسيس مقسمة إلى ما يشتمل على « الاستحضارات التاريخية جيلاً فجيلاً ، وأمة فأمة ، إن يكن بالنظر إلى أعمال الأيدى ، أو إلى الأديان والعقايد ، أو إلى العادات .. وما يشتمل على المواد التي يتألف منها جسم الأرض وما يشتمل منها على الأجسام المشرحة مع كل أعضائها وأجهزتها حيث يتأمل الانسان كل نواميس نموه منـذ كونه دودة وليس بانسان ، إلى كونه إنساناً عظيما ... وما يشتمل على العالم النباتى بكل طوايفه ... أو العالم الحيوانى بكل أجناسه وأنواعه ... حتى يدرك نظام حيوة كل نوع وفرد ، فيعلم أخيراً أن الحيوان كلما انتصب هيكله ارتفع نوعه . حتى إذا ما وقع رأسـه عموداً على محور سلسلته كان إنساناً »

وقد رأى أن « هجوم الناس على العلوم والمعارف يشبه انحدار الغدران من أعالى الجبال . فترى الآباء يسرعون إلى وضع أولادهم فى المـكاتب حالا بعد فطامهم (أى والله !) . »

ومن أدق ما لاحظه المعلم فرنسيس اهتمام الفرنسيين بدراسة لغتهم ، إذ يجب « أن يعلم كل منهم قواعد لغته وفهم أصولها . والذى يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحيوان العديم النطق ، لعـدم معرفته صحة النطق ... وكلما ازداد الشخص معرفة وتعمقاً بلغته ، ازداد اعتباراً وكرامة وارتقاء ، إلى أن يجعلوه قاضياً فى محكمة اللغة إقرأ : (Membre de l'Académie Française) . »

وكيف يرى الخواجا فرنسيس الحلبيّ كل ذلك ولا يفكر فى ضمة الشرق وانحطاطه ، أو لا يقارن بين ما ينال العالم فى فرنسا وبين ما يصيب من له فى الشرق « هوس فى العلم ، فيعيش مقطوع الخرج ، وربما يحتقر ويهـان . ولا يحصل على شيء من الجوايز سوى قول الناس عنه : هذا نحوى بارد ، أو شاعر مشمر ، أو بمرفينو ، أو فلفوس . وإذا كان يروى شيئاً من التاريخ يقول عنه : هذا حكاكاتى » . وخواجتنا العلامة لا يدعك تتساءل عن أصل هـذه الـكلمات ، فهو يفتح قوساً ليقول لك بأنه « يوجد كثيرون يقلبون شـاعر إلى مشمر ، وعارف إلى بمرفينو ، وفيلسوف إلى فلفوس ، وحكاياتى (كذا !) إلى حكاكاتى ! »

ولقد لاحظ رحالتنا والألم يحز فى فؤاده أن مركز الطلبـة غير محترم فى باريس . وتفسير ذلك عنده « أنه مالم يحصل الدارس أولا على شهادة مدرسية ، فانه لا يمكنه الحصول على ثمرة دراسته وجايزة أتعابه . كما أنه بدون رنين هذه الشهادة لا يسمع أحد به ، فلا يوجد له اعتبار ، وربما كان ساقطاً من أعين الناس لكونه دارساً . سيما إذا كان يدرس الطب أو الشريعة » . وسترى أن طلبة الطب والحقوق فى عصرنا إنمـا يحتفظون بسمعة قدمائهم السيئة . وإليك تفسير الخواجا فرنسيس ، وهو ينطبق فى بعضه على العصر الحاضر :

« وما ذاك إلا لأن صيت درسـة (طلبة) هاتين الصنعتين لا يوجد عندهم أقبح منه . ولا جرم فى شيوع هذا الصيت الردى لأنه يوجد حقيقة قسم كبير من هؤلاء الدارسين مطلوق العنان إلى ارتكاب الـكبايو والجرايم ، عوض الانـكباب على الدراسة والمطالعة . فترى جماعة هـذا القسم تايهين فى عالم الشهوات ، وضاربين فى أودية المعاصى . فهم يطوون النهار ويحيون الليل ما بين الدساكر والخمـارات ومحلات الانهماك على الفساد ... فتراهم هناك مفصوصى العرى ، محلولى الثياب ، مشوشى الشعر . وبرانيطهم مقلوبة إلى الوراء كأنها مجفلة من أماراتهم »

وكان من سوء حظ المعلم فرنسيس أن يشهد Chahut جامعياً فى داخل قاعة المحاضرات : « وقد شهدت شيئاً من ذلك ضـد أعظم معلمى النباتات عندهم . وهو أنني دخلت إلى القاعة المعدة للخطابات ، حينما كان المعلم مزمعاً أن يفتتح كلامه على النباتات . فرأيت المحفل مضاعف الاحتفال . أى أننى وجدت عدداً وافراً من الدارسين الذين لم أصادفهم قط فى محلات الدراسة . فحالـما دخل المعلم لابساً ثيابه الرسمية ، وصعد على منبر الخطابة ، أخذ هؤلاء الدارسون يصيحون ضده ، ويصفرون ويزمرون ويدبدبون بأرجلهم حتى لم يتركوا له سبيلا للفظ كلمة . وكلما رأوا شـفتيه تتحرك أوهمهم على الحركة أزادوا الضوضاء والصراخات . وفى أثناء ذلك دخل رئيس المدرسة نفسه ليرجوهم أن يستمعوا لهذا المعلم . فما نجم عن دخوله سوى تضاعف مربع الحركة ، ولم ينشوا أن هبط الخطيب من منبره فانفض المجلس » .

لا حاجة إلى وصف الخواجا فرنسيس بأنه رجل ساذج فقد « عرته حينئذ جودة البهتة وصار مهوى لتيار الاقشعرار ، وكان

قلبه يقابل ارتجاف المحل بارتجاف الرعدة » . ولدى خروجه سأل البعض عن « سبب اندفاع هذا البركان البابع ، فقيل له إن هؤلاء الدّرَسة يمقتون كل معلم يدقق مسايل الامتحان لكونهم لا يدرسون إلا نادراً وقليلاً . ولذلك يريدون عزل هـذا المعلم أو تنكيس أعلامه لشدة تدقيقه عليهم فى الامتحان النهائى بحيث لا يمكنهم احتمال ذلك لضعف دراستهم » . ويغلب على ظنى أن السبب فى هذا الـ Chahut كان سياسيًّا . وأقرب الحوادث من نوعه إلى أذهاننا مظاهرة طلبة الحقوق ضد البروفسور جيز أيام كان يدافع عن قضية النجاشى فى عصبة الأمم . نعم إن قسوة الأستاذ فى الامتحان ربما ساعدت على تظاهر الطلبة ، ولكنها لا يمكن أن تكون سبباً بعينها . وما رآه الخواجا فرنسيس يرجع فى ظنى إلى الشعور الجمهوري الذى كان ينفجر من آن لآخر بعد قلب الجمهورية الثانية وتنصيب البرنس نابليون إمبراطوراً باسم نابليون الثالث

وواضح أن الخواجا فرنسيس رجل قليل التسامح . فهو الدارس — رغم الثلاثين وبلّغها — يجارى الرأى العام فى الزراية بالدّرسة حتى لينتقد لباسهم . ولا شك أن هذا الحلبى لابس القنباز كان آخر الناس أهلية للحكم على لباس الطلبـة فى باريس ؛ وهذا الشرقى كان آخر من يحق له أن يحجر على حرية الطالب الباريسى ؛ ومع ذلك يقول : « والنظر الساذج إلى أولئك الدارسين يوشى بقبح سلوكهم ، لأن ملابسهم تعبر عن منافسهم ، فهم يلبسون بنطلونات هكذا ضيقة حتى تكاد تتمزق بين أفخاذهم ، وسترات هكذا قصيرة حتى لا تخفى شيئاً من الإليتين إلا قليلاً ، وشعورهم طويلة منفوشة ، وبرانيطهم عريضة كثيرة الانفراج هضيمة الكشح . وكلما كانت البرنيطة تامة فى هذا الشكل كان صاحبها أكثر تقدماً فى ذلك الضرب ، حتى تخال البعض من هـذه البرانيط نظير غمامة سوداء على رأس حاملها ، فمتى لاح هكذا شخص قال الناس : هو ذا الدارس ! »

فالمعلم فرنسيس يأسف على وجود « هكذا سرب بين دُرّس الطب والشريعة أوجب سقوط الجميع من أعين العامة مدة الدراسة مع أن جماعة القسم الأكبر — والذى عليه المعول — لا يسلكون تلك الطريق ، بل يسيرون فى سبيل مضاد على الخط المستقيم ، وعوض أن يطفئوا بمياه الشباب لهبات الشهوات إنما يستقطرونها بأنابيق أدمغتهم المضطرمة بنار الاجتهاد والحمية »

ويستطرق رحالتنا من كلام عن الدرسة المجتهدين إلى ختام وصفه النثرى لباريس حيث له حديث طويل عن « بحار التمدن المتدفقة من محابر رجالها ، وأنهار الأدب جارية من ينابيع أفكارهم » وعن « ممالك الأباطيل والأضاليل ، وعروش الحقائق والهدى » . ثم يتحدث فى لغة سامية عن الفكر « وقوته التى تغلب جميع القوات ، ولا تعرف رادًّا إذا جحت ، ولا صادماً إذا اندفعت » . ويضرب لهذه القوة أمثلة أجاد اختيارها حقاً ، فهو يقول : « أى قوة أوقفت حركة الأرض بعد ما أدارها غاليلى (جاليليو) على محورها ، ودفعها تكر على محيط دائرة البروج . وأى قوة هدمت بناية الإصلاح بعـد ما أشادها فكرهوس (Jean Hiiss, de Prague) . وأى قوة أوقفت دوران الدم فى أوعيته بعد ما أجراه فكرهارفى (Horvey) . مع أن ذلك حبس وذاك حرق (جان هوس أحرق على ما أذكر) وذا اضطهد »

« ولما عرف بنو المغرب كونهم محلين بقوة الفكر ، أخذوا يهذبونها ويثقفونها ، ويستظهرون نتائجها بدون التفات إلى تهديدات المغرضين ، أو معارضات المبغضين » . وبذلك « بلغوا هذا المبلغ العظيم من الفلاح والنجاح ، وتركوا بقية العالم يتقهقر ورامهم ، ويتساقط تحت أحمال كبرائه ، وأثقال ثقلائه ، فاقد التفكير وعديم النطق »

وهذه الإشارة المستترة إلى « تساقط الشرق تحت أحمال كبرائه وأثقال ثقلائه ، فاقد الفكر وعديم النطق » تشترى كل كبوات الأسلوب عند الخواجا فرنسيس ، فهو رجل سليم التفكير جدير بالتهنئة على كتابه الساذج ، ولو أن هذه التهنئة « تشبح بوجهها » أمام شعره ، وإذا كان نثره « يصدمنا » بصوره العنيفة المزدحمة ، فإن خلوه من التسجيع الذى كان ضرورة من ضرورات الكتابة فى عصره ، يشهد للخواجا فرنسيس بروح استقلالية مشكورة ، كنا نود أن نراها تعمل على إقصائه نهائياً عن الشعر بعد أن عصمته من السجع

ويختتم الرحالة كتابه بفصل إضافى عن معرض باريس العام فى سنة ١٨٦٧ . ولكن هذا الفصل لا يمكن أن يزيد معرفتنا بالخواجا فرنسيس ... حتى ولا بذلك المعرض

حسين فوزى